مجلة الرائد

العدد : ١٨١ الموافق في صفر ١٤١٧ هجري ٦ / ١٩٩٦ ميلادي

عنوان المقال : { وأضله الله على علم }	بقلم : د. موفق الشامي

وهناك طائفة من عبيد الطاغوت والهوى ، قد تصدوا للحكم والفتوى ، تتكرر قصتهم في كل عصر وفي كل مصر ، عُرفوا بأنهم زبانية السلطان وخدم كل قصر ، تصدروا المجالس والمحافل ، وأفتوا في الصغائر والكبائر ، قد نهلوا من ينابيع العلم نهلا ، وعبوا من شراب المعرفة عبا ، جمعوا علم العلماء ، وحكمة الحكماء ، ولكنهم جروا مع الحق مجرى السفهاء ، عرفوا الحق وأنكروه ، بل ربما هاجموه وحاربوه ، باعوا دينهم بدنيا غيرهم ، وحكموا للظالم وأدانوا المظلوم ، وسجدوا للحاكم وجلدوا المحكوم ، عبدوا الطاغوت وانساقوا لرغباته ، وخضعوا له وطلبوا مرضاته ، واتخذوا العلم وسيلة لتحريف الآيات ، وتأويل الكلمات ؛ من أجل إرضاء السادات ، لينالوا منهم الفتات ، يتهافتون تهافت الذباب على فتات موائد الطعام ، ويتماوتون تماوت الكلاب في إرضاء أصحاب السلطان ، ويتنافسون تنافس الذئاب في نهش لحوم النعاج والخرفان ... خالط الهوى قلوبهم ، وجرى مجرى الدم في عروقهم ، فتشربته عقولهم ، ونطقت به أفواههم ، وصدرت عنه جوارحهم.

يقول سيد قطب - رحمه الله - في الظلال: " ما أكثر الذين يُعْطَون علم دين الله ثم لا يهتدون به ، إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه واتباع الهوى ؛ هواهم وهوى المتسلطين الذين يملكون لهم في وهمهم عرض الحياة الدنيا. وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها ويعلن غيرها ، ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة ، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل ، يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعا ".

نعم ، إن اتباع الهوى وإيثار الدنيا على الآخرة من أهم أسباب الانحراف عن الحق والاندفاع تجاه الباطل ، وإن الهوى هو أساس البلوى ، وهو المعمي عن رؤية الحق والمصمُّ عن سماعه.

يقول الإمام والعالم العظيم ابن القيم في كتابه القيم والمفيد < الفوائد >: " كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها ، فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه... ، لأن أحكام الرب سبحانه كثيرا ما تأتي على خلاف أغراض الناس ، ولا سيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشهوات ، فإنها لاتتم

لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيرا ، فإذا كان العالم والحاكم محبـيْن للرياسة متبعيْن للشهوات ، لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق ، ولا سيما إذا قامت له شبهة ، فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى ، فيخفى الصواب ، ويطمس وجه الحق. وإن كان الحق ظاهرا لا خفاء به ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته ، وقال: لي مخرج بالتوبة ، وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى:{ **فخلف من بعدهم خلفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات** } ، وقال تعالى: { **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتابَ يأخذون عَرَضَ هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرضٌ مثلُه يأخذوه ألم يؤخذْ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحقَّ ودرسوا ما فيه والدارُ الآخرة خيرٌ للذين يتقون أفلا تعقلون** } (الأعراف:١٦٩) ".

إن خطورة أمثال هؤلاء من علماء السوء خطورة مضاعفة ولذلك كان عقابهم شديداً مضاعفاً:

١- إنهم عرفوا الحق وأنكروه ، بل ربما حاربوه ، والعجب العجاب أنهم قد يساعدون أصحاب الدركات على النيل من أصحاب المراتب والدرجات. يقول الله تعالى: { **ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ❋ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً** }.

٢- إنهم عرفوا الحق وحكموا بغيره وأوجدوا لأنفسهم الفتاوى ، وتلاعبوا بالنصوص والمبادئ ، وحرفوا الكلمات ، ولووا أعناق الآيات ، بما يحقق مصالحهم ويجري مع أهوائهم. يقول الشيخ مصطفى السباعي - رحمه الله - في كتابه <هكذا علمتني الحياة>: " فأقدر الناس على التلاعب بالقانون أعلمهم بنصوصه ومبادئه ، وأجرأ الناس على تجاوز حدود الأخلاق أعلمهم بفلسفتها ونظرياتها ، وأكثر الناس وقوعا في الإثم أكثرهم إحاطة بنصوص الشرع وحيل الفقهاء ، وأشد الناس تكالبا على الدنيا أكثرهم ترغيبا عنها وترهيبا بها ، وبذلك انقلب الدواء داءً ، والطبيب مريضاً ".

٣- إنهم قد ضلوا وأضلوا ، لأنهم بهم يُقتدى ، وباجتهاداتهم يُحتذى ، وتُسمع منهم الفتوى ، وهم على هوى وزيغ وضلال ، يُزيفون تعاليم الدين ، ويعطون أعداءه الفرصة والحجة لمحاربته والنيل منه والتهجم على أتباعه المخلصين. يقول الشيخ مصطفى السباعي - رحمه الله - : " مصيبة الدين في جميع عصوره بفئتين: فئة أساءت فهمه ، وفئة أتقنت استغلاله ، تلك ضللت المؤمنين ، وهذه أعطت الجاحدين حجة عليه ".

روى الإمام أحمد وغيره قول رسول الله ﷺ : « إن أخوفَ ما أخاف على أمتي كلُّ منافقٍ عليم اللسان ».

ويقول الأستاذ عصام العطار حفظه الله: " إن الجاهل الذي ينحرف فيتابع هواه وهو يعترف أنه مخطئ أفضل ألف مرة من العالم الذي يلتمس لانحرافه المبررات ويلبس أهواءه أقنعة زائفة من الدين والمصلحة ، والدين والمصلحة من ذلك براء ".

نعم تعسا للعلم الذي لا ينفع حامله ، وتعسا للعقل الذي يُودي بصاحبه ، وتعسا لعلماء السوء الذين يبيعون كلمات الله بثمن بخس زهيد فخسروا الدنيا والآخرة ، فهم في الدنيا محتقرون وإن اعتلوا أعلى المناصب والمراكز ، وهم في الآخرة في الدرك الأسفل من الجحيم: أتعس المنازل ، وكان في مقدورهم أن يكونوا سعداء في الدارين ولكنهم اختاروا وأرادوا شقاوة الحالين. يقول الإمام العظيم ابن القيم في كتابه < الفوائد > في قوله تعالى: { **واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتِنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطانُ فكان من الغاوين ۞ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثلُه كمثل الكلب إن تحملْ عليه يلهثْ أو تتركه يلهثْ** } (الأعراف:١٧٥-١٧٦) - يقول العالم الجليل: " فهذا مثال عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه ، وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه وذلك من وجوه:

١- أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عمدا لا جهلا.

٢- أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدا ؛ فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها ، ولو بقي معه منه شيء لم ينسلخ منها.

٣- أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه ، ولهذا قال فأتبعه الشيطان ولم يقل تبعه ، فإن في معنى اتبعه: أدركه ولحقه ، وهو أبلغ من تبعه لفظا ومعنى.

٤- أنه غوى بعد الرشد ، والغي: الضلال في العلم والقصد ، وهو أخص بفساد القصد والعمل ، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد ، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، وإن اقترنا فالفرق ما ذُكر.

٥- أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه ، لأنه لم يرفع به فصار وبالاً عليه ، فلو لم يكن عالما كان خيرا له وأخف لعذابه.

٦- أنه سبحانه أخبر عن خسة همته وأنه اختار الأسفل والأدنى على الأشرف والأعلى.

٧- أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس ، ولكنه عن إخلاد إلى الأرض وميل بكليته إلى ما هناك. وأصل الإخلاد: اللزوم على الدوام. كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض.

٨- أنه رغب عن هداه واتبع هواه ، فجعل هواه إماما له يقتدي به ويتبعه.

٩- أنه شبهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همة ، وأسقطها نفسا ، وأبخلها وأشدها كَلَبا ؛ ولهذا سمي كَلْبا

١٠-أنه شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد وهكذا ، هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا ، وإن وعظ وزجر فهو كذلك ، فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب ".

ولقد توعد الله سبحانه وتعالى أمثال هؤلاء من علماء السوء بأشد العقاب والنكال واللعنة وأشد العذاب قال تعالى: { **يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** } وقال تعالى: { **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** } وقال تعالى: { **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون** }.

